● الفصل الثالث

صفحة مهمّة فى حياة «نظام الملك»

- مدرسة الموظفين - قصة الثالوث كما حكاها «النظام» ومناقشتها.
- أحدوثة تتجدد، خماسي جامعة قرطبة.
- الحسن بن الصبّاح وأسباب اختلافه مع «النظام».
- رسالة تاريخية بين ابن الصبّاح والسلطان ملكشاه.

obeikandl.com

obeikandl.com

مدرسة الموظفين:

يرى الإنسان ـ وهو فيما يراه نتاج عاملين اثنين: تكوينه وبيئته ـ إنه غرسٌ تعاونت على نمائه عواملهما، وإنه قد يقوى أحد العاملين على الثانى فى توجيه الإنسان وتسييره.. ولكن لا يمكن له أن يكون نتيجة لواحدٍ منهما، كما لا يمكن أن يكون نتيجة شىء آخر لا يمتّ إليهما.. وقد يكون للموهبة ـ وهى واحدة من تلك العوامل الفعّالة أثرها فى اختلاف الأشخاص واتجاهاتهم الوجهة التى اشتهروا بها مع تشابه ظروف الحياة التى كانوا يحيونها وتقارب أنواع المعارف التى كانوا يتلقونها، كما حدث لثالوث القرن الخامس الهجرى الذى نتحدث عنه فى هذا الفصل.

فهذا «النظام» قد بزّ أقرانه من وزراء الخلفاء والسلاطين فى إدارة الملك وتدبيره والتأليف فى تنظيماته حتى لقب بـ «سيّد الوزراء»[1] وهذا ـ ابن الصبّاح ـ قد اختار لنفسه الزعامة الدينية وأنشأ فرقة عرفت باسمه[2].. كان يهدف من ورائها القضاء على سلطنة السلاجقة وخلافة بنى العباس معًا.. وذاك «الخيّام» قد زهد فى الحياتين: الدينية والسياسية.. وشكّ فى أولاهما بقدر ما عاف أخُراهما، ولعلّ الصراع العنيف الذى كان يشهده ويرى سوء عواقبه بين الزميلين المتزعمين.. من أسباب زهده فى الدنيا، وشكّه فى الآخرة فاقتنع بكأس خمر وكتاب شعر، يرتل هذا ويكرع ذاك، فهى عنده جنة الفردوس.

(١) هفت إقليم ـ مادة خراسان، وطبقات السبكى جـ٣ ص ١٣٥ ترجمته.

(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ـ سميت الحسنّية أو الصباحيّة نسبة لاسمه أو لقبه.

وقد يقال ـ نتيجة لما تقدم ـ بأن «النظام» وهو طليعة ـ هذا الثالوث كان ثمرة ماتلقاه من توجيه والده، ورعاية أساتذته، ونوع الغذاء العلمى الذى أخذ على شيخه ـ الموفق هبة اللّه ـ فى نيسابور، وقد يكون لهذا القول ما يسنده ولكنه لا يمكن أن يكون هو أيضًا العامل الوحيد فى توفيقه ونجاحه.. وبخاصة فى حياته السياسية إذ لو صح ما قيل لوصل جميع الذين أخذوا العلم على يد الإمام الموفق ـ النيسابورى ـ ما حصل عليه «النظام» من رئاسة فى حياته، ولكان أول الفائزين بهذه الخطوة هما ـ الحسن بن الصبّاح، وعمر الخيّام.

والظاهر أن مدرسة «الإمام الموفق» كانت تضفى التوفيق على تلاميذها المجتهدين النجباء لأنها كانت ذات سمعة طيبة فى الأوساط العلمية حينذاك.. ولأنها كانت بمنزلة معهد للدراسات العليا اليوم.. وغير بعيد أن إجازتها الدراسية كانت تعتبر تزكية من الإمام لخُلق طلابه، وشهادة منه على درجتهم العلمية، وجدارتهم بالوظائف الحكومية.. وليس ببعيد كذلك: أنه كان يقوم بدور الوسيط أو المرشّح للمناصب الكبرى فى الدولة حتى قيل: إنه هو الذى رشّح ـ الكندرى ـ للسلطان طغرلبك حينما أبدى احتياجه إلى شخص يتكتبه.

ومن هنا جاءت شهرة هذه المدرسة، وتوافد على الدراسة فيها أبناء الكبار والموسرين من مختلف الأقاليم حتى ليفشى إلينا «النظام» بهذا السرّ فيعلن أن والده ما أرسله إليها إلاّ لهذا السبب.. ثم يخبرنا بأن حضور «الخيّام» و «ابن الصبّاح» من أجل ذلك[1].

ويصف لنا كيف التقى الطلاب الثلاثة على طعام واحد، وفى مجلس لتلقى المحاضرات واحد، ومنهج للدرس والمذاكرة واحد[2].. كما ولدوا ونشأوا قبل ذلك فى إقليم واحد.. ثم جمعتهم المصادفات فى مدينة «نيسابور» عاصمة

(١) الوصايا ص ٢٩، ٣٠.

(٢) الوصايا ص ٢٩، ٣٠.

هذا الإقليم بعد أن غدا كل واحد منهم يطمح لأن يكون شيئًا فى الدنيا ولن يحدث ذلك إلاّ عن طريق العلم.. وكانت نيسابور آنذاك موئل العلماء.. وكان «الموفق» إمام مدرستها ومقصد الدارسين فيها.. ودخلوا المدرسة وهم على جانب من الدين يوشك أن يكون كإيمان العجائز الذى تمنّاه «الغزالى» لنفسه حينما ضاقت به الحيل عن الوصول إلى العالم المجهول، فأرادوا لأنفسهم إيمانًا يدعّمه العلم ويقرّه العقل.. فما تزودوا به حتى اختلفوا ثم افترقوا.. ومرّت الأعوام فإذا بالحسن بن الصبّاح إسماعيليّا باطنيّا، و«النظام» أشعريّا شافعيّا سنيّا متحمسًا، والخيّام مسلمًا مشكّكًا.

قصة الثالوث كما حكاها «النظام» ومناقشتها:

يحدّثنا «النظام» وهو يقصّ ناصحًا ولده ـ فخر الملك ـ عن صلته بالخيّام وابن الصبّاح وكيف ومتى بدأت، ويشير إلى حكاية العهد بينهم وما قام به تجاه كل واحد منهما وما لقيه من سوء الجزاء من ثانيهما.

وبعد أن يصف «النظام» كيف التقى بهما فى مجلس الإمام «الموفق النيسابورى» ويثنى على فهمهما وإدراكهما ينتقل للحديث عن أصلهما وعقيدتهما.. ثم يذكر أن «الخيّام» هو الذى فاتحه فى إبرام معاهدة الصداقة الدائمة والمشاركة فيما ينالون فى المستقبل إذ قال له: «المعروف عن طلاّب الإمام أنهم موفقون ناجحون، ولاشك أننا نحن الثلاثة إن لم نبلغ مناصب الدولة كلنا فلابد أن واحدًا منّا بالغها فماذا نشترط على بعضنا»، فقلت له: «الرأى رأيك»، قال: «فلنتعاهد أنه كلما ينال أحدنا شيئًا يكون ملكًا مشتركًا لنا نحن الثلاثة»، قلت: «فليكن ذلك».

وجاء «الخيّام» فى عهد السلطان ـ ألب أرسلان ـ طالبًا تنفيذ العهد فاستقبله «النظام» وطلب منه تقديمه إلى السلطان ليشاركه منصبًا فى الديوان ولكنه آثر السلامة وفضّل دنيا العزلة لينصرف إلى التأليف.. فلمّا وجده جادًا فيما قال خصّص له ألفًا ومائتى مثقال من الذهب سنويّا من واردات أملاك «نيسابور»

واعتزل الخيّام فى طلب العلم والتعمق فى الفنون ولاسيما «الهيئة» حتى بلغ فيه شوطًا كبيرًا.

أمّا «الصبّاح» فقد وفد على «النظام» فى عهد السلطان ـ ملكشاه ـ ويحدد السنة التى قدم فيها بأنها عام انتصار السلطان على ـ قاورت ـ والقضاء عليه[1].. وقال له الوزير بما يحتم عليه عهد الصبا من ترحيب وتكريم، وما أن بدأه وذكّره بالاتفاق حتى قال له: سمعًا وطاعة.. فإن الجاه والمنصب وسائر المكاسب والمواريث بين يديك ثم أدخله مجلس السلطان ومدحه وزكّاه وبالغ فى علمه ومحاسن سيرته.. فعيّنه السلطان فى الديوان، واستطاع بفضل ذكائه، أن يصير مستشارًا له.. وما أن وصل هذه الدرجة بسعى «النظام» وشفاعته حتى ظهر له سوء نيته وفساد طويته وبدت على تصرفاته وأقواله الخيانة والحسد[2].

ثم يختم «النظام» قصة الثالوث والمعاهدة بينهم بسرد حادثين مهمين قام بهما «ابن الصباح» أمام السلطان للتنديد بامكانياته والتشهير به.. ما كان أغنى ـ النظام ـ عن إيرادهما لشينهما بمقدرته لولا حرصه الشديد على بيان الحجّة بفساد ضمير صاحبه وزميل صباه[3].

تلك هى قصة التلاميذ الثلاثة كما رواها «النظام» وتفردت بنقلها بعض المصادر الفارسية ثم أصبحت موضع خلاف بين الباحثين اليوم، فقد رفضها من المستشرقين «براون» و «كرستن» و «رنفيلد» ـ ومن الشرقيين ـ فروغى وغيره[4]، وحجّتهم فى ذلك فارق السن، لأن «النظام» مات سنة ٤٨٥هـ بينما توفى زميلاه، الخيّام سنة ٥١٧هـ والصبّاح سنة ٥١٨هـ على أشهر الأقوال ومن غير المعقول أن يكونا قد عاشا مائة عام، لذلك يرجّح بعضهم ميلاد الخيّام بين

(١) الوصايا ص ٣١، ٣٢.

(٢) الوصايا ص ٣١.

(٣) الوصايا ص ٣٣، ٣٤، وانظر: ص ٢٧١ من البحث أيضًا هما قصة الحمّالين والميزانية.

(٤) القصة مشروحة فى تعليقات القزوينى على جهار مقالة.

سنة ٤٢٠-٤٣٠هـ وميلاد الصبّاح سنة ٤٣٠هـ (١٠٢٨م)[١] ليصبح عمرهما حوالى التسعين عامًا لا أكثر.. وبذلك يكون الفرق بين «النظام» وزميليه فى السنّ ما بين ١٢ ـ ٣٢سنة إن صحّ هذا الترجيح.

ووجه الضعف فى مذهب القائلين بالرفض ـ كما نعتقد ـ إنما يتضح من الدليل الذى استندوا عليه، فإنهم اعتمدوا على فرضية غير سليمة فى واقعها لأن العقل نفسه لا يمنع من تجاوز الإنسان مائة عام بقليل فكيف إذا لزمنا الأمر مائة عام فقط. ولأن الطبيعة قد جاءت بالأمثال على ذلك ـ وإن كانت قليلة ـ فى كل عصر، وفيما نقرؤه من سِيَرْ علماء القرن الخامس أمثلة عديدة للمعمّرين وهكذا فى بقية العصور.. فليس بعيدًا أن يعيش ـ ابن الصبّاح ـ مائة عام أو أكثر منها بقليل، وهو الرجل المثقف الذى نعم بجوّ جبلى نقى ومنزلة رفيعة بين مريديه وبهذا يكون من الجائز أنه ولد حوالى سنة ٤١٥-٤٢٠هـ.. وبذلك يكون الفرق بينه وبين «النظام» حوالى ٨-١٢ سنة ويكون عمره حين قدم نيسابور حوالى ١٦ عامًا، استمر فى الدراسة بعدها حتى بلغ العشرين فى الوقت الذى كان زميله «النظام» ما بين ٢٢-٢٦ عاما حينما كان منتميًا لمدرسة الإمام «الموفق» النيسابورى. وبذلك يكون الصبّاح قد عمّر ثلاثًا ومائة سنة، وهو أجَل ـ كما نراه ـ ليس بالعمر المديد.. ولا بالمستحيل الفريد.

أمّا ما يستدل به بعضهم على تكذيب هذه الحكاية لامتناع اجتماعهم فى مجلس للتعليم واحد مع فارق السنّ ـ أو لامتناع اجتماع النشاط الذى كان يبديه ـ الصبّاح ـ وهو فى سن قاربت المائة.. فإن ما نشاهده باقيًا حتى اليوم من نظام حلقات التعليم الحرّ فى الأزهر بالقاهرة، وفى النجف بالعراق لا يمنع حضور ابن العشرين إلى جنب ابن الثلاثين بل لا يعنى بفارق السن إطلاقًا. وإن ما يقوم به «ابن الصبّاح» بعد أن بلغ سنّ الشيخوخة لا يتعدى الجهد الفكرى، ووضع الخطط لنشر الدعوة وتنظيم كتائب الفدائية وهو عمل يتناسب وهذه المرحلة من العمر، وقد لا يصلح إلاّ بها ولا يجوّد ويتقن إلاّ بعد خبرات لا تكون إلاّ فى بلوغها.

(١) أحمد شاكر شلال: الخيّام ورباعياته ورقة ٢٤٣ ـ رسالة جامعية مخطوطة / القاهرة.

أحدوثة تتجدد:

لا نريد بمناقشتنا الخاطفة هذه أن نؤيد صحة هذه الأقصوصة أو نفنّدها.. فمن الجائز أن تكون حديث خرافة، ومن المحتمل أن يكون «الحسن» الذى درس مع «النظام» شخصًا آخر غير ابن الصبّاح وإن اتفق معه فى الاسم.. فنشأت هذه الخرافة.. وإنما نريد أن نلفت النظر إلى ضعف الدليل الذى استندت إليه نظرية الرافضين لها، وأن نصل إلى أنها قصة تحكى إلى أن تتوافر البراهين القاطعة على بطلانها.. غير أننا نستطيع أن نضيف إلى زعم القائلين بالرفض مضعِّفًا جديدًا ذلك هو وجود نظائر لهذه القصة تروى لثالوث آخر مع فارق آخر فى الزمن والأشخاص والغرض طبعًا، ولكن يرويها لنا إمامٌ مشهود له بالعلم والفضل من معاصرى «النظام»، وفى أعظم كتبه.. وهى قصة ـ الجنابى، وابن المقفع، والحلاّج ـ التى يحكيها لنا ـ أبو المعالى الجوينى ـ فى كتابه الشامل فى أصول الدين، ثم ينقلها ويناقشها ـ ابن خلكان فى وفياته[1]، والتى مفادها: أن هؤلاء الثلاثة قد تواصوا على قلب الدولة، وإفسادها، ثم ارتاد كل واحد منهم قطرًا فذهب الجنابى إلى أكناف الأحساء وابن المقفع إلى بلاد الترك ونزل الحلاّج العراق[2].

ومن الطريف حقًا أن تنقض القصة لنفس السبب الذى نقضت به قصة ثالوث «النظام» وأن تناقش بنفس الأسلوب الذى ناقشها به المفنِّدون لها تقريبًا.

يبدأ ابن خلكان تفنيده لها بقوله: «وهذا كلام لا يستقيم عند أرباب التواريخ لعدم اجتماع الثلاثة المذكورين فى وقت واحد، لأن الأول والثالث قتلا فى منتصف القرن الرابع بينما قتل الثانى فى منتصف القرن الثانى، ولم يعرف على أنه رحل إلى بلاد الترك».

وقد تكون هذه كغيرها من صنع القصاصين ثم تناقلتها الأقلام والأسماع حتى بلغت الإمام «الجوينى» فأثبتها على علاّتها فى كتابه المذكور.. وقد يكون

(١) ونقل هذه القصة أيضًا بنصها: الصفدى فى الوافى بالوفيات جـ ١ ص ٤٥ مستدلاً على فوائد التاريخ.
(٢) الوفيات جـ ١ ص ٤٠٥.

هناك تصحيف فى الاسم وقع من قِبَل النسّاخ والصواب فيه ـ ابن المقنّع ـ بالنون لا الفاء وقد يراد به «ابن مقنّع» آخر فظن به ـ ابن المقفع ـ المشهور، كما ظنّ فى «الحسن» الذى زامل «النظام» فى تلمذته بنيسابور ـ الحسن بن الصبّاح ـ ولكن المشكلة ستبقى مادمنا لانعرف من هو ذلك الشخص المجهول ولم نصل إلى الحجّة الدامغة برفضها. ومن الجائز أن يكون المؤلف قد جاء بأسماء هؤلاء الأشخاص الثلاثة بغرض الإفساد للدولة وإن اختلفوا فى الزمان والمكان.

وليست هذه أيضا بآخر قصة تصلنا على غرار حكاية «الثالوث النظامى» ولو من بعض الوجوه، وإنما نجد هناك حكاية أخرى على شاكلتها، مع فارق بسيط هذه المرّة حيث لا تختلف مع قصتنا إلاّ فى عدد الأشخاص والمكان والزمان.. وتتفق معها فى الغرض والجوهر فقد أورد المؤرخون: أن اجتماعًا حدث لخمسة من طلاّب جامعة قرطبة فى القرن الرابع الهجرى، وكان هذا الاجتماع فى بقعة خضراء من متنزه الناعورة بعد جهد مضنى فى الدرس، وفى طليعتهم ـ ابن أبى عامر ـ وقد كانت مظاهر التفكير بادية عليه، فسأله أحدهم: «ما الذى يشغلك يا ابن أبى عامر؟» فقال فى لهجة حادّة: «لابد أن أملك الأندلس، وينفذ حكمى فيها فليتمّن كلٌّ منكم ما يريد إذا أفضى الأمر إلىّ».. فتمنّى الأول: القضاء.. والثانى: جباية الضرائب.. والثالث: أن يكون حاكمًا لقرطبة.. أمّا الرابع فقد هزأ، ولمّا سئل عن أمنيته أجاب ساخرًا: «أيها الدعى المغرور أتمنى أن يطاف بى «قرطبة» كلها على حمار ووجهى إلى الذنب، وأنا مطلىّ بالعسل ليجتمع الذباب والنمل وليكن هذا أول ما تستفتح به عهدك أيها المتطاول على الملك». فقال ابن أبى عامر: «ليكن لكل منكم ما أراد».. ثم دارت عجلة الزمن وإذا بابن عامر ينتقل من كاتب للعرائض فى حانوت صغير عند باب الخليفة إلى مستشار ـ لهشام بن الحكم ـ الطفل الصغير، ثم إلى حاكم مطلق يلقّب بالمنصور.. ولم ينس زملاءه الطلاّب فقد عيّنهم جميعًا فى المناصب التى تمنّوها واختفى الرابع خوفًا من تحقيق أمنيته له أو عليه.

كل هذه الأقاصيص الطريفة التى سبقت قصتنا فى الزمن، والتى حيكت على منوال واحد ونسجت لمقصد متشابه، يضاف إليها ما افترضه المشككون من وجوه تجعل من عنوان أحدوثتنا المعروفة باسم التلاميذ الثلاثة - سى يار ديستانى - مثاراً للجدل، وموضعًا للنظر إلى أن يأتى البرهان القاطع على صحتها أو انتحالها.

وإنه لممّا يدهش حقّا أن نجد نظائر هذه القصة فى الكتب العربية منسوبة إلى القرن الخامس الهجرى بينما لم تشتهر قصة - الثالوث النظامى - إلاّ فى المائة السابعة، حينما سقطت قلعة «ألموت» على يد «هولاكو خان» وأضرمت النار فى مكتبتها بأمره أى بعد أقل من قرنين على وفاة «النظام».. وقيل إنه وقع حينذاك بيد - عطا ملك جوينى - كتاب يسمّى - سر كذشت سيدنا - فى سيرة - الحسن ابن الصبّاح - فاختصر بعض موضوعاته وأثبتها فى آخر كتابه - جهان كشاى[1] - ثم تناقلتها الكتب الفارسية بعد تلخيص وتغيير ومن أهمها - جامع التواريخ - لرشيد الدين فضل اللّه[2] المقتول سنة ٧١٨هـ.

فمن هو الحسن بن الصبّاح إذًا؟ وما هى أسباب الخلاف بينه وبين «النظام»؟..

الحسن بن الصبّاح: (حياته وجوابه على رسالة السلطان ملكشاه)

لقد اختلف المؤرخون فى ميلاده شأن غيره من العصاميين المغمورين الذين يجهل الناس يوم مجيئهم للدنيا، فليس فيهم من يؤبه له أو يهتم به، كما لم يُثر أمر والديه أحد لتعرف الشىء الكثير أو القليل عنهما.. وهكذا اختلفوا أيضًا فى نسبه فقيل: إنه «الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن الحسين بن الصبّاح الحميرى اليمنى» قدم أبوه من اليمن إلى الكوفة، ورحل منها إلى «قم»

---

(١) انظر: جهانكشاى.

(٢) راجع - فصل من جامع من التواريخ القسم الثانى - سر كذشت سيدنا.

ثم استوطن الرى التى ولد فيها ـ الحسن[1] ـ وقيل إنه يتظاهر بالانتساب إلى العرب والانتماء إلى حمير اليمن ـ ولكن أهل خراسان وبخاصة سكان طوسى ينفون ذلك ويقولون: إن أباه من فلاحى تلك الولاية[2].

أخذ التشيّع عن أبيه، حيث كان اثنى عشريّا[3]، لأن الدعوة التى قام بها ـ ناصر خسرو[4] ـ المتوفى سنة ٤٨١هـ كانت قد انتشرت فى قهستان وطبرستان فانقلب إسماعيليّا شيعيّا، ثم أسّس فرقته الباطنية أو الحشاشين التى اشتهرت فيما بعد باسمه تارة، وبلقبه أخرى وبالطريقة التى شاعت فى تعاليمه ثالثة، إذ تلقى بعض العلوم على يد الشيخ «عبد الملك بن عطاش» داعية الإسماعيلية فى العراق.. وعلى يد أستاذه هذا حصل على إجازة الدعوة للمذهب بعد أن أخذ منه البيعة والعهد للإمام المستنصر باللّه الفاطمى، حيث جعل مركز دعوته «الرى»[5].

وفى سنة ٤٦٧هـ انتقل من الرى إلى أصبهان فقضى فيها قرابة ثلاث سنوات لعلّها كانت هى الفترة التى اتصل فى أوائلها «بالنظام».. وتقرّب فى أثنائها من السلطان ملكشاه، ثم اختلف مع وزيره فخرج من البلاد ساخطًا وعزم على السفر إلى مصر.

وفى سنة ٤٧١هـ وصل القاهرة فى زىّ تاجر[6] بعد أن مرّ ببغداد والموصل ودمشق ولبث فيها سنة وسبعة شهور ومثلها فى الاسكندرية لقى فيها اللطف والرعاية من الخليفة المستنصر، وطبقًا لأصول الدعوة ولما سمعه من الخليفة فقد

---

(١) وفى الوصايا أنه الحسن بن على بن أحمد بن جعفر ص ٣٠.

(٢) الوصايا ص ٣٠.

(٣) المصدر فى رسالة ابن الصبّاح أنه كان شافعيّا كأبيه، ثم صار شيعيّا إسماعيليّا.

(٤) انظر: مقدمة سفرنامه لناصر خسرو ـ نشر وتحقيق «عن. يحيى الخشّاب».

(٥) فصل من جامع التواريخ ـ باسم «سر كذشت سيدنا» ـ رشيد الدين فضل الله ـ نشر محمد دبير ستان ط طهران.

(٦) الكامل لابن الأثير جـ ١٠ ص٦٨ـ حوادث سنة ٤٨٧هـ، وفى أخبار مصر لابن ميسّر سنة ٤٧٩هـ ـ جـ٢ ص ٢٧.

دعا لنزار من بعده[1]، بينما دعا ـ بدر الجمالى ـ لأخيه المستعلى، ومن ثمّ نشب الخصام بين الزعيمين الداعية الكبير والوزير العظيم، فلم يجد بدّا من ترك البلاد والعودة إلى الشرق فمرّ بالإسكندرية ومكث فيها وقتًا ثم مرّ ببلاد الجزيرة والفرات وخوزستان حتى بلغ أصفهان سنة ٤٧٣هـ وأخذ يتنقل بين مدن إيران ويدعو فيها الناس من وراء ستار حتى وصل ولاية ـ ألموت «عش العُقاب»[2]، واستولى على قلعتها سنة ٤٧٨هـ بعد أن رشا حاكمها ـ المهدى العلوى ـ بثلاثة آلاف دينار ذهبية[3].

ولمّا بلغت الأخبار مسامع السلطان ملكشاه بانتشار الدعوة النزارية أقطع أحد غلمانه «قزل سارغ» قهستان وأرسله لحرب «النزارية» هناك وبقى مشغولاً بحربهم حتى سنة ٤٨٥هـ، حيث أنفذ الأمير «أرسلان تاش» على رأس جيش قوى للاستيلاء على قلعة «ألموت» والقضاء على «ابن الصبّاح» فحاصروها وضيّقوا عليه، ولكنه قضى على الوزير «النظام» صاحب هذه الفكرة قبل احتلال القلعة[5].

ومهما قيل ـ عن أسباب الخلاف بين الزميلين المتخاصمين فإنها لا تتعدى حربًا فى الرأى أخذت تقوى وتشتدّ كلما ازدادت بواعثها على مرور الأعوام، فابن الصبّاح كان ميّالاً للتشيّع الإسماعيلى، سواءٌ أكان منذ نشأته الأولى أم بعد تلقيه الدروس على ـ ابن عطاش ـ فى حين كان «النظام» سنيّا شافعيّا منذ

---

(١) لأن نزاراً أكبر أولاده ـ الكامل جـ ١٠ ص ٩٨.

(٢) قلعة حصينة على جبل من ناحية «روزبار» بين قزوين وبحر الخزر قيل إن بعض ملوك الديلم أرسل عقاباً للصيد وتبعه فرآه وقع على هذا الموضع الحصين، فاتخذ منه قلعة وسماها «إله ألموت» أى تعليم العقاب بلسان الديلم، وقيل اسم القلعة بتاريخها لأنها بنيت فى سنة ٤٤٦هـ وهى «م و ت».
(القزوينى – آثار البلاد ص ٢٠٠ – مادة «ألموت»).

(٣) فصل من جامع التواريخ سر كذشت سيّدنا ص ٦:١٧، وفى المنتظم لابن الجوزى ألفا ومائتى دينار ـ جـ٩ ص ١٢٠.

(٤) نفس المرجع.

(٥) الكامل لابن الأثير ـ حوادث سنة ٤٩٤هـ ـ جـ ١٠ ص ١٢٩.

طفولته المبكرة.. ثم تطّور الخلاف المذهبى إلى تنافس على المنصب ليتخذه كل منهما وسيلة لنشر عقيدته.. وإذا تذكرنا ما للعقيدتين من نظرة خاصة للخلافة والقائمين بها يظهر لنا وجه الخلاف أكثر وضوحًا، وتبدو لنا أسباب النزاع أبعد غورًا وأشد خطرًا.

وما كان «النظام» بالذى يخشى «ابن الصبّاح» أو يهابه حيث كان قبل ذلك يكرمه ويحترمه لفضله إذ كان عالمًا بالحساب والهندسة والنجوم والسحر[1].. وما كان السلطان ـ ملكشاه ـ بالذى يخاف دعوته.. لذلك قد أمضى هذا العهد فى التجوال والتنقل بين مدن إيران ثم العراق إلى أن عاد من رحلته إلى مصر، واستفحل أمره باغتصابه قلعة ألموت وطرده صاحبها سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م).. وتواترت الأخبار بانتشار دعوته بين القرى وفى المدن من خراسان وغيرها حتى تأكد «للنظام» بأن الخطر على الدولة وعليه وعلى الخلافة أصبح قاب قوسين أو أدنى.. وأنه لابد أن يتلافاه قبل أن يستفحل فيقضى عليهم جميعًا.

وقد قابل الوزير الموقف على خطورته كعادته فى مثل هذه الأحوال حيث فضّل أن ينحسم الخلاف بالمفاوضة واللّين دون إراقة دماء فاقترح على السلطان ملكشاه إرسال مبعوث إلى «الحسن بن الصبّاح» ليدخل فى روعه عظمة الدولة وأبهة الملك، فبعث إليه الرسول حاملاً رسالته يطلب منه الخضوع للحكومة القائمة، ويحذّره مغبّة التمادى فى بثّ الدعوة الفاطمية والخروج على الخلافة العباسية ولكن الحسن بدلاً من أن ينصاع لأمر السلطان ويرضخ لإرادته فقد عرض على رسوله ألوانًا غريبة من طاعة أتباعه له، فهذا يرمى بنفسه من قمة الجبل، وذاك ينحر نفسه بالخنجر، وثالث يلقى نفسه فى الماء فيموت غريقًا كل ذلك بمجرد الإشارة إليهم لفعل ذلك[2]. ثم قال للرسول: «قل لسلطانك

(١) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٢٩، والقزوينى ـ آثار البلاد ـ مادة «ألموت» ص ٢٠٠.

(٢) المنتظم جـ٩ ص١٢٠ ـ حوادث سنة ٤٩٤هـ، وعبد الرزاق كتاب نظام الملك ـ عن كنج دانش ص١١٤.

عندى من هؤلاء عشرون ألفًا»[1]، قيل: وفى أثناء هذه المحادثة قُدم ابنا الحسن بن الصبّاح بين يديه بسبب مخالفة شرعيّة لاتهامهما بشرب الخمر.. فأمر بجلد كل واحد منهما، ونفّذ أمره حالاً وماتا متأثرين به[2].

وقد ذكرت المصادر التاريخية السفارة كما أسلفنا ولكنها لم تشر إلى اسم صاحبها والتفاصيل المهمّة التى جرت خلالها، ثم ذكر بعضها أنه سافر إلى مصر بزىّ تاجر غير أنها أغفلت دواعى السفر وأسباب تخفّيه[3].. كما شنّعت على «ابن الصبّاح» وغالت فى الطعن بعقيدته ونسبت إليه من الأشياء ما هو أبعد بالدعوة الباطنية منه إلى الدعوة الفاطمية إلى أن عثرت ـ خلال سفرى إلى إيران فى صيف سنة ١٩٥١م ـ على رسالتين مخطوطتين فى إحدى المجاميع القديمة المخبوءة فى مكتبات طهران[4]، وكم كان سرورى عظيمًا حينما وجدت أولاهما من السلطان ملكشاه إلى الحسن بن الصباح والثانية ردّا عليها، وإنهما ليكشفان عن كثير من الأخطاء التاريخية حول علاقتهما وأسباب اختلافهما كما يميطان اللثام عن حياة «ابن الصبّاح» ورأيه فى الخلافة العباسية و«نظام الملك» معًا.

والجدير بالتنويه عليه فى هاتين الرسالتين: أن السلطان بعد أن يتّهم «ابن الصبّاح» بإغواء الناس وخروجه على ولىّ عصره، وطعنه بخلفاء بنى العباس الذين هم قوام الدين والدولة التى ستحيل قلعته أرضًا يبابًا، وقاعًا خرابًا[5].. يأتيه الجواب مفصّلاً فى الدفاع عن نفسه وعقيدته، فيشرح له ابن الصبّاح أحواله وشيئًا عن دينه.. ويثبت له أنه على دين الإسلام ثم يدلى بالشهادتين، وأنه يعتقد بأن: «أولاد النبى أحقّ بخلافة أبيهم من أولاد العباس وأليق بها من غيرهم». ثم يتّهم «النظام» بأنه خصم قوى يجعل الباطل حقّا والحق باطلاً وأنه هو الذى أوقع بينهما فاضطر للسفر إلى بغداد ومنها إلى مصر حيث

(١) المصدر السابق.
(٢) كنج دانش ـ مادة ملكشاه، وعبد الرزاق ـ النظام ١٧٨.
(٣) ابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث ٤٨٧هـ ـ جـ ١٠ ص ٩٨.
(٤) مكتبة ـ ملّى ملك ـ م الخاصة.
(٥) انظر ملحق رقم ٦ من البحث.

التقى بالإمام «المستنصر باللّه» وسلّمه منشور (مرسوم) الدعوة ورجع ليدعو إلى المذهب الذى كان لدى الصحابة فى زمن الرسول، ويدفع شرّ بنى العباس، ثم يعلن عصيانه لهم، وخروجه على دولتهم لأنها قامت على التزوير والتدليس، والفسق والتلبيس، ويورد له دليلاً على عدم وفائهم بمقتل ـ أبى مسلم الخراسانى ـ وكيف غدروا به وشردوا الألوف من أبناء الرسول، وفتكهم بآل برمك ودليلاً آخر على فسادهم بإشاعة الخمر والزنا واللواط عندهم، ودليلاً ثالثًا هو حجرهم على العقول بضرب أبى حنيفة مائة جلدة، وصلب الحلاّج..

ثم يعود للحديث عن «النظام» بعد كلام طويل فيتهمه بقتل «الكندرى» الذى يطرى على خُلُقه وعلمه وإخلاصه، كما يتهم «النظام» بالإسراف على شراء الطين والآجر -قاصدًا بناء المدارس والعمائر ـ فى أطراف المملكة، بينما كان «الكندرى» يوصّل الأموال إلى خزينة السلطان ولايصرف شيئًا على الخشب والطين..

ثم يختم رسالته بالتسليم للسلطان ولكن بعد الخلاص من خصومه إذ لا يمكن الحضور للخدمة بوجودهم واستماعه لأوامر بنى العباس الذين يريدون القضاء عليه، ولئن اضطر لإرسال جيش إليه تنفيذًا لإرادتهم وتفاديًا لتقوّلات المغرضين فإنه لا يعذر فى شرع المروءة.

ثم يجيب على هذا التهديد بما يساويه إن لم يكن أقوى منه حجّة وبأسلوب متين فيقول: بأن لديه من الأحباب والمؤانسين والشيعة والعلويين فى طبرستان وقهستان والجبال عدد كبير سيقف فى وجه جيوشه وحينئذٍ لا يعلم كيف تنتهى الحرب لأن مريديه فى سرستك ـ يقصد -ألموت ـ يعتقدون بأن هذا البرج لا يخرج من أيديهم إلى زمن بعيد متعلق بعناية اللّه[1].

والجديد فى الرسالتين وخاصة ثانيتهما أنهما كشفتا عن صحة تلك السفارة

(١) انظر: ابن الأثير فى الكامل، وابن الجوزى فى المنتظم ـ حوادث ٤٩٤هـ ٣/ لم نعثر على ترجمة له بين رجال هذه الفترة.

التى جهلها كثير من المؤرخين، وأثبت لنا فيها ـ ابن الصبّاح ـ اسم السفير وهو الصدر الأعظم ـ ضياء الدين خاقان ـ وأبان لنا عن جانب من عقيدته لم يزل خفيًا حتى اليوم وهو أنه كان شافعيًا على مذهب أبيه، ثم مال نحو التشيّع بعد دراسة الحديث وكتب الشافعي فى فضل أولاد النبى ثم يشير إلى عمله فى الديوان واشتغاله بخدمة السلطان حتى أنسته فكرته الأولى، وسعاية «نظام الملك» به حتى أخرجه قهرًا..

ومن هنا استأنف ما قطعته عنه أعمال الدنيا، فانتقل من الرى إلى بغداد وأقام مدة يقول عنها، إنها غير قصيرة يتفحص أحوال الخلفاء فرآهم خارجين عن «مراتب المروءة والفتوة والإسلام» فذهب إلى مصر وفيها خليفة الحق الإمام «المستنصر باللّه» حيث شهد أحواله واعترف به وتتبّع خطاه العباسيون يريدون اغتياله فلم يتمكنوا وأغروا أمير الجيوش ـ بدر الجمالى- فأراد إبعاده إلى الروم داعيًا ولكن الإمام قرّبه ورعاه..

ثم يستمر فى حديث طويل يدفع به عن نفسه ومذهبه ويرفع من قدر خلفائه الفاطميين ويحطّ من سمعة بنى العباس.. إلى أن يقول: «فإذا ما اضطر أحدهم لرفع العار أن يبذل روحه ليدفع واحدًا أو اثنين من هؤلاء الظلمة فليس ذلك ببعيد، وإذا فعل فهو معذور».. مشيرًا بذلك إلى فرقة الفدائية التى ألّفها لاغتيال مناوئيه ـ وكأنه أحسّ بخطر تصريحه فعاد إلى القول: «فما لحسن الصبّاح وهذه القضايا وما حاجته بها وما هو نافع له إذا أغرى أحدًا وأى عمل من أعمال الدنيا يمكنه إيجاده، ما لم يتعلق به تقدير سماوى»..

ثم ينهى رسالته باقتراح عظيم على السلطان خطير على كيان الدولة يقول فيه: «فإذا رافقت السلطان سعادة الدنيا والدين كما رافقت سلطان الإسلام ـ محمود ـ حينما قام بدفع شرهم ـ يعنى بنى العباس ـ فليأت بالسيد ـ علاء الملك ـ[1] ـ من «ترمذ» وينصّبه للخلافة.. وإلاّ فسيأتى زمان يجىء فيه ملك عادل يخلّص المسلمين من هذا الجور.. والسلام على من اتبع الهدى»[2].

(١) الملحق السابق رقم ٦ ولسنا ندرى من المقصود بذلك، وهل هو أستاذه ابن عطاش أو غيره؟
(٢) المصدر السابق /٦ .

والذى يلاحظ على هذه الرسالة ـ وفيما نلحظه قيمتها التاريخية ـ أنها تتضمن على الرغم من إيجازها ـ ترجمة مركّزة لسيرة «ابن الصبّاح» بقلمه، كما تحتوى على حقائق جديدة عنه لاتوجد فى غيرها من المصادر التاريخية المعروفة حتى الكتاب الذى نسب إليه والذى اكتشف فى مكتبة ـ ألموت ـ باسم ـ سركذشت سيدنا ـ وبذلك تلقى ضوءًا جديدًا على الأحكام المتداولة بين المؤرخين فى هذه الفترة فتخفّف من حدّة بعضها وتؤيد بعضها، وتنكر بعضها الآخر.

وقد كان من نتائج هذه الرسالة ـ كما نعتقد ـ أن السلطان ملكشاه قد تأثر بها فزلّزلت عقيدته وغيّرت من وجهة نظره نحو الخلافة والخلفاء من بنى العباس، وبالتالى نحو «ابن الصبّاح» نفسه فشهدناه «يؤجل» إرسال الجيش لحصاره إلى سنة أخرى وقيل سنتين[1]، وتشيع حول ميوله الباطنية الشبهات وتشير إليه النصوص المتناثرة هنا وهناك[2]، ويذهب إلى بغداد ينذر الخليفة بتركه العاصمة إلى حيث يشاء.

ومهما فرض للباطنية من معان، وتخيَّل لها المؤرخون من صلات وجذور بالقرمطة والمزدكية وأمثالهما من ديانات قديمة، فإنها بدأت كعقيدة لها وسائلها ونظمها وتشكيلاتها وتعاليمها المرتبة على يد ـ ابن الصبّاح ـ فإنما عرفت أحوال أتباعها فى عهد السلطان ملكشاه. . فقد حكى أنهم دعوا لمذهبهم مؤذنا فامتنع عليهم فقتلوه خوفًا من افتضاح أمرهم فطلب «النظام» قاتله فوقعت المنيّة على نجار يدعى ـ طاهر ـ فقتل[3].

وقد اتخذ ـ ابن الصبّاح ـ لنشر عقيدته وسيلتين يحملان الوعد والوعيد. . يغوى بأولاهما: السّذج والبسطاء، ويهدّد بالثانية: الوجهاء والعظماء، فقد

(١) محمد عبدالرزاق ـ آل ـ لكنهورى ـ كتاب النظام ص ١٧٨.

(٢) المنتظم جـ ٩ ص١٢٠ ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ، وابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٢٩ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ ـ ترجمة ملكشاه.

(٣) ابن خلكان ـ الوفيات.

اختار لاعتناق مبادئه الأغنياء والعوام يطعمهم الجوز والعسل والشونيز حتى ينبسط دماغهم، وقيل: الحشيش ليهيىء لمريديه جوّا من الخيال تتلاشى فيه القيود الاجتماعية، ويلقى عليهم وهم فى حال غيبوبتهم تعاليمه لتتمكن فى نفوسهم وتستولى على عقولهم.. ثم اعتمد فى نفس الوقت على فرقة ألّفها من خيار أنصاره لاغتيال كبار الدولة ومن على شاكلتهم ممن يقف فى طريق دعوته فبرعوا فى ابتكار الطرق للفتك بأعدائهم، وكان المنتسبون من الفدائية يستجيبون لتنفيذها لأنها صادرة عن رغبة الإمام المعصوم، حتى أطلق عليهم ابن خلكان اسم - الفداوية -[1]، كما شاع عند غيره اسم - الحشاشين - مستمدين من هذه الشخصية وتلك من الوسائل التى اشتهروا بها.

وعلى الرغم من ذلك فلم تلق دعوته لنزار رواجًا فى - الرى - مهبط رأسه ومركز دعوته حيث أخذ أبو مسلم حاكمها وصهر «النظام» الذى طلب مراقبته بعد أن شهد جماعة من دعاة الفاطمية يدخلون عليه [2].. فاضطر لأن ينتقل بين المدن والقرى حتى انتهى به المطاف إلى قلعة «ألموت». ومع ذلك فقد وجدت لها تربة خصبة لنموها فى فارس لم تجد مثلها فى مصر والبلاد التابعة لها بفضل داعيتها الأول - ابن الصبّاح.

ومنذ أعلن «ابن الصبّاح» دعوته نزح فريق من أبناء الخلفاء الفاطميين بمصر إلى فارس منهم - شاه طاهر بن رضى الدين الإسماعيلى الحسينى - [3] كانوا سندًا له فى الدعوة، وعاملاً قويّا فى انتشارها حتى قيل: إنه كان معه صبى منهم يدعو باسمه.. ويقول للناس: إنه من نسل محمد بن إسماعيل وإنه لابد لكم من معلم ومعلمكم هذا الصبى، وطاعته واجبة فإن رضى عليكم سعدتم فى الدنيا والآخرة[4]..

---

(١) الفخرى.

(٢) ابن الأثير - الكامل جـ ١٠ ص ١٢٩.

(٣) الشوشترى - مجالس المؤمنين جـ ٢ ص ٢٣٤.

(٤) القزوينى - آثار البلاد ص ٢٠١ - قلعة «ألموت».

وممّا مهّد «للحسن» تنقله دون ضرر عليه ومهّد للباطنية إزدهارها أنه لم يكن هناك «صاحب خبر» فى عهد السلطان «ألب أرسلان» لإعتقاده بأن ليس فى الولاة من يرتاب فيه أو يخشى خيانته، وأن فى تعيين الرقباء وبثّ الجواسيس ما يؤلم المخلصين وينتهزه الخونة فى تقريبهم وإغداق الأموال عليهم فيرفعون التقارير إليه وفيها ذمّ للأصدقاء، ومدح للاعداء وبهذا تسود الفوضى، ويختلّ النظام[1].

غير أن هذا الرأى لم يرض وزيره ـ نظام الملك ـ فلم يقف عنده فى مطاردة الباطنية وأعلنها حربًا عليهم بالاقناع وتأليف الكتب ضدهم تارة وبالقتال تارة أخرى، واستمر فى تنفيذ خطته هذه طوال حياته وخاصة فى عهد السلطان ملكشاه إلى أن قضت عليه بإيعاز من صاحبه بعد أن تحققت فرصته إذ قال له مرّة وهو يتفرس فيه: عن قريب يُضلّ هذا الرجل ضعاف العوام[2].. كما تحققت نبوءة صاحبه فى الخلافة العباسية وهو يخاطب السلطان بقوله: «وإلاّ فسيأتى زمان يجىء فيه ملك عادل يخلّص المسلمين من جورهم[3]، إذ جاء ـ هولاكو ـ بعد قرنين من إعلان هذه الحرب العنيفة التى بدأت باستيزار «النظام» عام ٤٥٥ هـ وقضى على خلافة بنى العباس سنة ٦٥٦هـ برأى مشيره ـ نصير الدين الطوسى.. ولكن بعد أن هدّ أركان قلعة ألموت وأحرق مكتبتها سنة ٦٥٤هـ»[4]. وبقتله الخليفة ـ المستعصم بالله ـ بعد حوار عنيف معه من قبل الفاتح ـ كما تذكر بعض المصادر والتى تحتاج إلى تحقيق ـ انتهت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ.

* * *

(١) مختصر البغدادى ـ آل سلجوق ص ٦٣.
(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ١٢٩، والقزوينى ـ مادة «ألموت»» ص ٢٠٠.
(٣) البحث ٤ ملحق رقم ٦.
(٤) الفخرى.